

علم التفسير في نظر كافة المسلمين من أشرف العلوم وأرفعها، وهو قد اكتسب شرفه هذا من شرف موضوعه فإن موضوعه كلام الله تعالى، وشرف غرضه فإن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي هي الغاية القصوى، وشرف معلومه ومن جهة شدة الحاجة إليه وذلك لأن كل كمال ديني أو دنيوي مفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية، وهي بالطبع متوقفة على العلم بكتاب الله تعالى ، قال الراغب الاصفهاني: ت(٥٠٢) " أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن بيان ذلك أن شرف الصناعة إما بشرف موضوعها مثل الصياغة فإنها أشرف من الدباغة لأن موضوع الصياغة الذهب والفضة وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو جلد الميتة وإما بشرف عرضها مثل صناعة الطيب فإنها أشرف من صناعة الكُناسة لأن عرض الطيب إفادة الصحة وعرض الكُناسة تنظيف المستراح وإما لشدة الحاجة إليها كالفقه فإن الحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الطيب إذ ما من واقعة من الكون في أحد من الخلق إلا وهي مُفتقرة إلى الفقه لأن به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدين بخلاف الطيب فإنه يحتاج إليه بعض الناس في بعض الأوقات إذا عرف ذلك فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث أما من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة ومعدن كل فضيلة وأما من جهة الغرض فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى والوصول إلى السعادة الحقيقية التي لا تفتنى وأما من جهة شدة الحاجة فلأن كل كمال ديني أو دنيوي عاجلٍ أو آجلٍ مُفتقر إلى العلوم الشرعية والمعارف الدينية وهي مُتوقفة على العلم بكتاب الله تعالى "

ولقد قال الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) في وصفه كما روى عن الإمام علي (عليه السلام): "عليكم بكتاب الله فيه نأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين والذكر الحكيم والصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا يشيع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنفضي كعجائبه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل ومن خاصم به أفلح ومن دعي إليه هدى إلى صراط مستقيم "

وقد أجمع العلماء على أن التفسير من فروض الكفايات في حين ذهب الزمخشري ت (٥٣٨) إلى أبعد من هذا فجعل الخوض في تفسير القرآن فرض عين وفي القرآن الكريم آيات تبين ذلك منها قوله تعالى: ((يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)) ، أخرج ابن كثير عن ابن عباس (رضي الله عنه) في قوله تعالى ((يُؤْتِي الْحِكْمَةَ)) قال: "يعني المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله... وقال ليث بن أبي سليم عن مجاهد العلم والفقه والقرآن " قال الواحدي ت (٤٦٨) عن فضل القرآن " وَإِنَّ أُمَّ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمَجْمَعِ الْأَحْكَامِ الدِّيْنِيَّةِ، كِتَابُ اللَّهِ الْمُودِعِ نُصُوصِ الْأَحْكَامِ وَبَيَانَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْمَوَاعِظِ التَّافِعَةِ، وَالْعِبَرِ الشَّافِيَّةِ، وَالْحُجَجِ الْبَالِغَةِ، وَالْعِلْمُ بِهِ أَشْرَفُ الْعُلُومِ وَأَعَزُّهَا، وَأَجْلُهَا، لِأَنَّ شَرَفَ الْعُلُومِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ. وَلَمَّا كَانَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى أَشْرَفَ الْمَعْلُومَاتِ، كَانَ الْعِلْمُ بِتَفْسِيرِهِ وَأَسْبَابِ تَنْزِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَتَأْوِيلِهِ، أَشْرَفَ الْعُلُومِ " ، أما من حيث الشمول فإن " علم التفسير من أهم العلوم ومن أشملها ، أما إنه من أهم العلوم فلأنه يتعلق بكلام الله ولا أهم من كلام الله سبحانه وتعالى ولا أشرف من كلامه جل وعلا ومن ذلك أيضاً شمولية علم التفسير لسائر العلوم ووجه ذلك أن المتحدث في العقيدة أمره محصور فيها ، و المتحدث في الفقه أيضاً محصور في جانب الفقه ، أما المتحدث في التفسير فإنه تارةً يتحدث في العقيدة، و تارةً أخرى يتحدث في الأحكام

الشرعية العملية (أي فيما يتعلق في الفقه) ، وتارة يتحدث في الأخبار، أخبار الأمم السابقة وهكذا...فهو يتنقل بين العلوم جميعاً وسبب ذلك أن الله تعالى نزل القرآن تبياناً لكل شيء " "

وقد أخرج عثمان بن محمد العثماني قال سمعت أبا بكر النيسابوري يقول سمعت الربيع بن سليمان يقول قال الشافعي يا ربيع: "رضى الناس غايةً لا تدرك فعليك بما يصلحك فألزمه فإنه لا سبيل إلى رضاهم وأعلم أن من تعلم القرآن جل في عيون الناس ومن تعلم الحديث قويت حجته ومن تعلم النحو هيب ومن تعلم العربية رق طبعه ومن تعلم الحساب جل رأيه ومن تعلم الفقه نبل قدره ومن لم يضر نفسه لم ينفعه علمه وملاك ذلك كله التقوى "

وقال إياس مثل الذين يقرؤون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتدخلتهم روعة لا يدرون ما في الكتاب ومثل الذي يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما في الكتاب ، وقال ابن عباس الذي يقرأ ولا يفسر كالأعرابي الذي يهذي الشعر، وقال مجاهد أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل، وقال الحسن والله ما أنزل الله آية إلا أحب أن يعلم فيمن أنزلت وما يعني بها